الهجـــاء

الهجاء : غرض من الأغراض الشعرية ، يتناول الشاعر بالذمّ والتشهير عيوب خصمه المعنوية والجسمية ، وهو نقيض المدح ،لأن المدح يذكر الفضائل ، والهجاء يذكر الرذائل . والهجاء تعبير عن عاطفة السخط والغضب تجاه شخص أو جماعة من الناس يبغضهم الشاعر ، ويحاول أن ينتقم منهم بهجائه لهم ، وهو ينفّس بهذا الهجاء عمّا يختلج في نفسه من ضغائن وأحقاد ، لذلك كان الهجاء سلاحاً من أسلحة القتال ، يُضعف الشاعر به معنويات خصومه ويرتبط بالوعيد والتهديد والانتقاص من أقدار الخصم والبحث عن معايبهم وسلب الخصال الكريمة التي يعتزون بها .

وللهجاء أثر فاعل في النفوس ، فقد عزا العرب القدماء الأثر الذي يتركه الهجاء في النفوس إلى السحر ، وقرنوا بين السحر والهجاء للغموض الذي يحيط بهما والرهبة التي يتركانها السحر والهجاء في النفوس ، ولذلك عزوا الهجاء إلى إيحاء الشياطين وعونهم ، وزعموا أن لكل شاعر تابعاً من الجن ، فالشاعر حين يهجو يستعين بشياطينه لاستمطار اللعنات على خصومه ، كما يستعين الساحر بالأرواح الشريرة على الحاق الأذى بمن يريد سحرهم ، وقد ذكر الشعراء أنفسهم أن لهم شياطين تُعينهم على الشعر وسمّوا تلك الشياطين ، يقول الأعشى أنه استعان بشيطانه **(مسحل)** على هجاء خصومه الذين دعوا شيطانهم **(جهنّام)** :

فلما رأيت الناس للشر أقبلوا ... وثابوا إلينا من فصيح وأعجم ِ
دعوت خليلي مسحَلاً ودعوا له ... جَهنّام جدعا للهجين المذمّم
حباني أخي الجنيّ نفسي فداؤه ... بأفيحَ جيّاش من الصدر ِخضرم ِ

كما افتخر أبو النجم العجلي بأن شيطانه ذكر وشيطان غيره أنثى ، اذ يقول :

إني وكلَّ شاعر ٍ من البشر ... شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وكان خوفهم من الهجاء وأثره في نفوسهم أنهم اذا هجاهم شاعر بسوءة ٍ ولو كانت مفتراة فإنهم يتوارون منها خجلاً ، لأنها تلازمهم وتلصق بسمعتهم ، من ذلك ما كان من أمر بني عجلان الذين كانوا يباهون بلقب جدهم وهو عبد الله بن كعب العجلان ، سمي بذلك لتعجيله القرى للأضياف ، وظلّ هذا اللقب مصدر فخر وزهو لهم حتى هجاهم قيس بن عمرو النجاشي بقوله :

أولئك أخوالُ اللعين وأسرةُ ال ... هجين ورهط الواهن المتدلل ِ
وماسمَّي العجلان إلاّ لقولهم ... خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل ِ

فصار هذا اللقب سوءةً وسبة عليهم ، وكان أحدهم إذا سُئل : ممن الرجل ؟
أجاب : كعبي أي من بني كعب متجاوزاً ذكر عجلان .

وقد نظر النقاد القدامى في الهجاء فرأوا أن أشدّه وقعا في النفوس وأكثره إيلاماً ما كان صادقاً عفيفاً لا فحش فيه ولا إقذاع ، وكأنهم نظروا إلى الهجاء المقذع على أنه سباب وشتيمة يستطيع أن يتفوق فيهما عامة الناس ، والهجاء الذي يبقى عالقاً في النفوس هو الذي تكون صياغة جميلة ومعانيه عميقة ذات دلالة ، تنال من المهجو بأسلوب ذكي طريف ، كأن يتخذ طريقة الإستهانة بالخصم أو تجاهله أو التشكيك به كما فعل زهير بن أبي سلمى في أل حصن إذ قال :

وما أدري وسوف أخالُ أدري ... أقومُ أل حصن أم نساءُ
فأن تكن النساءَ مخبّآت ... فحقَّ لكل محصنة ٍ هِداءُ

وللشعراء في هجائهم طرق وأساليب ، فمنهم من تناول خصمه بالهجاء الساخر فاستهزأ به وتجاهل قدره وحّط من شأنه وأنكر عليه فخره ، وسلب كل مكرمة ، كما فعل الحطيئة في هجاء قدامة العبسي وقومه :

قدامةُ أمسى يَعْرُكُ الجهل أنفهُ بجدّاء لم يُعرك بها أنفُ فاخرِ
فخرتم ولم نعلم بحادثِ مجدكم فهاتِ هلمَّ بعدها للتنافرِ
ومن أنتم أنىَّ نسينا من أنتم وريحكم من أي ريح ِ الأعاصرِ
متى جئتم إنّا رأينا شخوصَكم ضآلاً فما إن بيننا من تفاخرِ

ومنهم من اتخذ هجاؤه شكل أو أسلوب المقارنة والمخايرة ، فيوازن الشاعر بين من يريد هجاءه وبين من يريد مدحه فيجعله أقلّ شأناً فيشعره بالضعة والحقارة والإنحطاط ، وقد برع الحطيئة في هذا اللون من الهجاء أيضاً، فتراه يقول هاجياً الزبرقان بن بدر ، ومادحاً بني أنف الناقة :

ألمْ أكُ جاركم فتركتموني لكلبي في دياركمُ عُواءُ
وآنيت العشاءَ إلى سُهيلٍ أو الشّعرى فطال بي الأناءُ
فلما كنتُ جاركم أبيتم وشّرمواطنِ الحسبِ الإباءُ
ولمّا كنت جارهم حَبَوْني وفيكم كان لو شئتم حِباءُ

ومشهور قوله في مدح بني أنف الناقة والتعريض بقوم الزبرقان بني بدر، اذ يقول :

قومٌ هم الأنف والآذناب غيرهم ومَنْ يسوّي بأنف الناقةِ الذ نبا

ومن الشعراء من يتناول خصمه صراحةً ويهاجمه مهاجمة سافرة ، فيوعد ويهدد وينذر ويقذف بالشتيمة الصريحة والسباب الواضح ، وقد يتناول الشعراء في هذا اللون من الهجاء الأعراض ويجاهر بالفحش والإقذاع ، يقول أوس بن مغراء في هجاء بني عامر :

فلست بعافٍ عن شتيمة عامرٍ ولا حابسي عّما أقول وعيدُها
ترى اللؤم ما عاشوا جديداً عليهم وأبقى ثياب اللابسين جديدُها
لعمرُك ما تبلى سرابيلُ عامرِ من اللؤم ما دامت عليها جلودُها

هذا والهجاء بعامة يقوم على سلب الخصال الكريمة والمثل العليا ، فالشاعر إنما يهجو خصمه بالغدر والخيانة والجبن والقعود عن المكارم والهزيمة واللؤم والبخل والنزق والطيش ، وما إلى ذلك من الصفات التي يراها العربي عاراً يبرأ منه ، ويتميز الهجاء الجاهلي بخصائص أبرزها :

١- عفته : والعفة أمر ظاهر في هذا الشعر فلم ينحدر إلى الإقذاع والشتم الواضح ألاّ الحُطيئة في بعض أبياته ، وشعرهم أقرب إلى اللوم والعتاب منه إلى البذاءة والإقذاع ، وقد كان النابغة بارعاً في هجائه العفيف الشديد الموجع فهو لا يُغضب القبيلة حين يهجو فارسها ، وإنما يحّط من قدره بأن يقارنه بأعيان قومه فيمدحهم ويؤخره عنهم ، فيكون هجاؤه إياه أقسى من النيل منه صراحة ، يقول النابغة مجيبًا عامر بن الطفيل بعد معركة حِسي :

فإنْ يك عامر قد قال جهلا فأن مظنّة الجهل الشبابُ
فأنك سوف تحلم أو تناهى إذا ما شبْت أو شاب الغرابُ
فكن كأبيك أو كأبي براءٍ توافقك الحكومة والصوابُ
ولا تذهب بحلمك طافيات من الخيلاء ليس لهن بابُ

٢- ويتميز أسلوب الهجاء بالوضوح والبساطة وقلة الصنعة والتكلف ، لأن الهجاء وليد الفطنة وسرعة الخاطر واللمحة الدالة ، أمّا الشعراء الذين برزوا في هذا الفن ، وتميزوا عن غيرهم وأطالوا فيه وأكثروا ، فأشهرهم ثلاثة : الحطيئة والأعشى وحسان بن ثابت ، ولكل منه نهج خاص به وأسلوب تميّز به عن غيره ، ولكن الحطيئة أعلاهم صوتاً وأخبثهم لساناً، وأشدهم هجاءً ، فلم ينازعه في هذا الفن منازع ، لأنه نشأ وقد هيأته ظروفه وبيئته ونفسيته ليكون هجاءً سليط اللسان .